الزى لشتنشتآتر : الإسلام والعصر الحديث

مع مقدمة بقلم سير محمد ظفر الله خان

Ilse Lichtenstadter : Islam and modern age

مؤلفةهذا الكتاب يهودية الديانة، ألمانية الأصل ، ثم رحلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتجنست بالجنسية الأمريكية .

وقد درست الثقافتين العربية والإسلامية فى جامعات ألمانيا وانجلترا وحصلت على إجازتى دكتوراه ، إحداها من جامعة فرانكفورت ، والثانية من جامعة أوكسفورد ، وهى الآن عضو فى المدرسة العليا للآداب والعلوم بجامعة نيويورك ، وكانت قبل ذلك أستاذة للأدب العربى والثقافة الإسلامية فى المعهد الآسيوى بنفس المدينة. وللمؤلفة ـ غير هذا الكتاب ـ مقالات وأبحاث أخرى نشرت فى كثير من المجلات العلمية فى ألمانيا وأمريكا والباكستان ومعظمها تدور حول النواحى الاجتماعية فى الإسلام مثل مكانة المرأة أو نظام الأسرة ، وفيما يلى بيان بأهم هذه المقالات :

Lichtensladter (Ilse)

An Arab - Egyptian Family ; (The midelle East Jaurnal, vol. VI. Washington, 1952)

The Muslin Woman ; (Sociologus, vol. VII, Berlin 1957)

From Particularism to Unity : Race, nationality and minorities in the Early Islamic Emplre. ; (Islrmic Culture, Hyderabad, 1949).

ولم تقنع الدكتورة «الزى» بما حصّلت من معلومات عن هاتين الثقافتين : العربية والإسلامية جمعتها من الكتب التى قرأت ، أو من المحاضرات التى استمعت إليها ، بل أرادت أن تتصل بالعرب وبالمسلمين اتصالا شخصيا، وأن ترى بلادهم ، وأن تحيا بينهم وتعيش معيشتهم وأن تدرس عن كثب عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ، وأن تلمس بنفسها مشاكلهم وتستمع إلى أفكارهم وآرائهم ، ولهذا سافرت إلى مصر ثلاث مرات فى السنوات : ١٩٤٧ و ١٩٥٠ و ١٩٥٥ ، وأقامت بها مددا طويلة ، وزارت معظم البلاد العربية المجاورة لمصر كما زارت باكستان ـ باعتبارها دولة إسلامية ـ فى سنة ١٩٥٥ ، وأقامت بها شهورا ، ثم أقامت فى مدينة دلهى ثلاثة أسابيع اتصلت خلالها بالجالية الإسلامية المقيمة فى عاصمة الهند .

وقد عقدت المؤلفة أواصر الصداقة أثناء هذه الزيارات مع عدد كبير من مسلمى الشرقين الأدنى والأوسط ـ رجالا ونساء ـ وكانت تجربة طيبة مكنتها من جمع كثير من الملاحظات والمعلومات وقد لقيت من أصدقائها المسلمين كل ترحيب ، وكانوا ـ كما تقول فى مقدمة كتابها ـ يشعرونها دائما ـ مع أنها يهودية أنها فى بيتها ، وذلك على الرغم من اختلاف أنماط حياتهم وقواعد دينهم . وقد تحدث إليها كثيرون من هؤلاء الأصدقاء فى مصر وباكستان عن كفاحهم وعن إيمانهم ، كما كانوا فى معظم الأحوال يصارحونها بنقدهم للأساليب الأوربية ، وقصور الغرب وعجزه عن فهم أساليبهم .

* * *

والكتاب كما تقول المؤلفة فى مقدمتها فيه محاولة لتحليل المشاكل التى تعترض العالم الإسلامى المعاصر من حيث علاقتها بأسسها القديمة مع فحص الأسباب التى أدت إلى ظهور هذه المشاكل .

ومن الواجب فى رأيها إبراز هذه الأسس الكامنة فى الإسلام والتى ظلت قوية ثابتة على مر العصور ، كما كانت مستقلة عن الأحوال الخارجية أو العصور المتغيرة ، فإن الكشف عن هذه الأسس يمدنا بالدوافع الداخلية الثابتة للحياة والفكر الإسلاميين .

والعالم الإسلامى خرج أخيرا من عزلته الطويلة وبدأ يشارك من جديد فى الشؤون العالمية ، وكثير من مداخل صراعه ترجع أسبابها إلى عودة الاتصال بينه وبين الغرب ، وإنه لمما يعنى الشرق والغرب معا إيجاد حل لهذه المشاكل ، ولذلك كان الهدف الثانى لهذا الكتاب ـ كما تقول المؤلفة ـ هو تحليل المشاكل التى نشأت عن تقابل العقليتين الشرقية والغربية .

والقسم الأول من هذا الكتاب الذى يتناول مبادئ الإسلام وأسسه يعتمد اعتمادا كبيرا على المراجع والمصادر الإسلامية القديمة ، فى حين أن القسم الثانى الذى يعنى بتحليل مشاكل العالم الإسلامى المعاصر يعتمد فى معظمه على الملاحظات الشخصية للمؤلفة .

وقد ركزت المؤلفة جهودها للعناية بدراسة النواحى الدينية والثقافية والأدبية والتاريخية للعرب وللعالم الإسلامى ، ولكنها تقرر كذلك أنها لكى تفهم الإسلام فهما عميقا دقيقا كان لابد لها أيضا من العناية بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية .

والمؤلفة تذكر أنها كانت قد انتهت من تأليف كتابها وكتابة الصفحات الأخيرة منه فى الوقت الذى نشأت فيه أزمة السويس أى قبيل العدوان الثلاثى على مصر ، ذلك العدوان الذى هزّ ضمير العالم ـ على حد تعبير المؤلفة وهى يهودية ـ ، ومع هذا فإن هذه الأحداث المؤلمة لم تغيّر ـ كما تقول ـ أى جزء من أجزاء البحث ، بل على العكس زادت من اعتقادها أن الإدراك المتعمق لينابيع الثقافة الإسلامية أصبح ضروريًّا لفهم الصراع القائم بين الشرق والغرب ، وأسباب الشدّ والجذب المتبادلين بين العالمين .

والمؤلفة ترى أن الوقت لم يحن بعد لتقييم هـذه الأزمة بكل تشعباتها وأسبابها المتعارضة ، وقد يتضح من المناقشات العامة أن الأسباب الحقيقية لهذه الأزمة إنما ترجع إلى العوامل السياسية والاقتصادية ، أو إلى الانفعالات الوطنية ، أو إلى الصراع بين الدول الكبرى ، أو إليها جميعا ، ولكن المؤرخ الحق يجب عليه ـ وسط هذه المنافسات والثورات المتكررة المتتابعة ، ووسط حالة القلق العام التى تسود عصرنا الذى نعيش فيه ـ أن ينفذ ببصره إلى مظاهر التغير والانتقال بين عصر وعصر ، وأن يقارن بين هذه الفترة التى نعيش فيها وبين الفترات الحاسمة الشبيهة لها فى التاريخ مثل انحلال الامبراطورية الرومانية ، أو قرون النهضة والإصلاح ، أو عصر الثورة الفرنسية .

ولهذا ترى المؤلفة أن أزمة الشرق الأوسط الحالية ليست إلا جزءًا من الصراع فى سبيل السيادة بين آسيا والغرب .

والمؤلفة ترى أخيراً أن الصراع بين العرب وإسرائيل يجب أن يحكم عليه وأن يبحث عن حل له داخل نطاق هذا الصراع الكبير بين آسيا والغرب ، ونحن نخالف المؤلفة فى هذا الرأى ، ونرى أن الصراع بين العرب وإسرائيل هو أولاً جزء لا يتجزأ من الصراع بين القومية العربية وكل القوى الخارجية ـ شرقية أو غربية ـ التى تحاول العدوان على العالم العربى .

* * *

وقد قسمت المؤلفة كتابها إلى : مدخل ، وبابين ، وخاتمة .

ففى المدخل تكلمت عن المشكلة : مداها ومعناها .

وجعلت عنوان الباب الأول : « أسس الإسلام » ، وقسّمته إلى فصول تكلمت فيها عن :

١ ـ الأساس الثقافى : المجتمع العربى قبل الإسلام .

٢ ـ الأساس الدينى .

٣ ـ الأساس الفقهى والقانونى .

٤ ـ الأساس الاجتماعى .

٥ ـ الأساس الفلسفى .

وجعلت عنوان الباب الثانى « المسلم والتجديد » ، وقسّمته إلى فصول تكلمت فيها عن :

١ ـ المشكلة العامة .

٢ ـ المشكلة الاجتماعية : الزواج والأسرة ، التعليم ، الاقتصاديات .

٣ ـ المشكلة السياسية : الدولة الإسلامية ، الإسلام والقومية .

٤ ـ الفكر الجديد فى الإسلام .

أما الخاتمة فقد تحدثت فيها عن موقف الشرق قبالة الغرب أو بمعنى آخر عن تقابل الشرق والغرب .

وفى نهاية الكتاب قائمة مفيدة بالمراجع التى أفادت منها المؤلفة عند وضع الكتاب .

* * *

وقد جهدت المؤلفة ـ كما تقول فى مقدمتها ـ أن تلتزم الحياد فى بحثها وأن تتناول الموضوع كما يتناوله كل باحث يسعى إلى الحقيقة ، فلا تحابى فريقا على فريق آخر . وحاولت قدر الإمكان أن تلتزم الأمانة فى تفسيراتها ، ولهذا هى تتوقع أن لا يرضى عنها فى بعض الأحيان القارئ المسلم أو القارئ الغربى ومع هذا فإنها تصرح أنها اضطرت احتراما لقواعد البحث ولصداقتها العميقة للمسلمين واحترامها التام لدينهم أن تلتزم الحقيقة بالقدر الذى استطاعت .

والحق نقول إن المؤلفة حاولت جهدها أن تكون معتدلة ومعقولة عند كلامها عن الإسلام والمسلمين ، فهى تقول مثلا عند حديثها عن الإسلام : الإسلام ليس دينا وحسب ، إنه أكثر من ذلك ، إنه أسلوب من أساليب الحياة .

والإسلام كدين له قيم خاصة ، وخير دليل على هذا أن الدين المسيحى لم يستطع

أن يجد سبيله إلى نفوس الأميين والفقراء من المسلمين أو إلى نفوس المثقفين ثقافة عالية أو إلى نفوس القادة والساسة ، وإنك لتجد علماء الذرة والحيوان والرياضة ـ رغم بلوغهم هذه الدرجة العليا من العلم ـ ظلوا مخلصين لدينهم الإسلامى .

ومما يستحق الالتفات أنه ما من واحد من الطلبة المسلمين الذين يتلقون العلم فى أوربا قد تحـول إلى المسيحية ، قد يكون من بينهم من استغرب فى أنماط حياته ، ولـكن ليس من بينهم من استنصر ، ولم يحدث هـذا عن مصادفة ، ولـكن له دلالته القوية ، وذلك أن الإسلام له قيمه التى لاترضى الجاهل وحسب ، بل والتى تـكفى حاجات المتعلمين والمثقفين »

ومن المثل الطيبة على اعتدال المؤلفة ودفاعها عن الإسلام وتأييدها لأحكامه حديثها عن المرأة وحقوقها فى الإسلام ومكانتها فى المجتمع الإسلامى (انظر ص ١٢٢ وما بعدها) وكلامها عن الحجاب ، نشأته وتطوره وحكم الإسلام فيه (ص ١٢٣ وما بعدها)

ومع ذلك فإن القارئ المسلم لا يستطيع أن يرضى عن كل ما أوردت المؤلفة فى كتابها من آراء فإن فيه مآخذ كثيرة ، وفى رأيى أنها لا تنفرد وحدها بترداد هذه الأفـكار التى نأخذها عليها ، بل هى أفـكار سمعناها ونسمعها كثيراً من عدد من المستشرقين ، وقرأناها ونقرؤها لهم فيما يكتبون ويؤلفون .

من ذلك قولها بوجود تعارض أو تناقض فى القرآن[1] وتستشهد على هذا بالآية رقم ١٠٥ من سورة البقرة التى تقول :

« ماننْسَخ من آية أو ننْسِخها نأتِ بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » .

وهذه دعوى باطلة لست أحسب أن الهدف منها برىء ، وقد فطن إلى هذا المأخذ السيد محمد ظفر الله خان وأشار إليه فى التقدمة التى قدم بها للـكتاب

---

(١) انظر كذلك ص ٩٨ ـ ٩٩ من الـكتاب .

وناقشه وحاول أن يفنده مستندا إلى قوله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران :

« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ ، محكمات هُنَّ أُمُّ الكتاب ، وأُخَرَ متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله إلا الله والرَّاسِخون فى العلم يقولون آمَنَّا به كُلٌّ من عند ربنا وما يَذَّكَّر إلا أولو الألباب » .

والذى نعلمه ونؤمن به نحن المسلمين أن لاتناقض ولا تعارض فى القرآن البتة ، ولو أن المؤلفة ومن يقول بقولها من المستشرقين رجعوا إلى المعجم المفهرس للقرآن لوجدوا أن الكتاب الكريم به نحو ٣٨٥ آية وردت فيها كلمة « آية » ، وأن كلمة « آية » فى كل هذه الآيات لاتعنى فقرة من فقرات سور القرآن ، وإنما هى تعنى دائما: الدليل والبرهان والشاهد والعلامة والعبرة والعظة مثل قوله تعالى :

« قال رب اجعل لى آيةً قال آيتك ألا تكلم الناس »

وقوله : « إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله : « وإن يَرَوْا كل آية لايؤمنوا بها » .

وقوله : « أن تبتغى نفقاً فى الأرض أوسُلَّماً فى السماء فتأتيهم بآية » .

وقوله : « هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله » .

وقوله: « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ».

وقوله : « فاليوم نحن ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » .

وقوله : « إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » .

وقوله : « وكأين من آية من السموات والأرض يمرون عليها » .

وقوله : « إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

وقوله : «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل » ... الخ والمقصود بالنسخ فى الآية التى استشهدت بها الأستاذة « الزى » إنما هو نسخ آيات الله فى كونه ،

والسياق يدل على هذا بدليل أن الآية تختم بقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .

والحقيقة أن هذا التناقض المدعى منشؤه جهل باللغة العربية وكتب الأصول والتفسير ، ونقصان فى معرفة مصطلحات القرآن .

ومما يؤخذ على مؤلفة هذا الكتاب أنها حين تحدثت عن فرقة الأحمدية القاديانية التى نشأت فى الهند أشارت إلى القول الخاطىء الذى حاول أن يفسر به أحمد قاديان ـ مؤسس الفرقة ـ قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » من أن المقصود « بخاتم النبيين » الخاتم الذى يختم به ، لا أنه آخر الأنبياء ، ولو أنها روت هذا القول على أنه قول أحمد قاديان لما كان هناك ما نأخذه عليها ، ولكنها ذكرت ما يفيد موافقتها على هذا القول ، بل وادعت أن القرآن يؤيده ، فقالت :

« The Korman itself calls Muhammad - Seal of prophets »

انظر ص ٦٨ ، ص ٨٦

ومما يعيب هذا الكتاب فى نظر القارىء المسلم أن المؤلفة تتحدث عن محمد عليه السلام باعتباره مشرعا ، وتتحدث عن التشريعات الواردة فى القرآن باعتبارها من وضعه ، ولهذا تنقده وتصف تشريعاته بالقصور وعدم الشمول ، فهى تقول مثلا فى ص ٧١ ـ ٧٢ :

« ومحمد ـ رغم ما يمتاز به من عبقرية ـ لم يكن مشرعا لتشريعات شاملة ـ حتى داخل النطاق المحدد لتنظيماته المبتكرة ـ فالتشريعات الموحى بها فى القرآن هى قرارات صدرت لتوائم حالات خاصة ، وتشريعاته الاجتماعية تبدو وكأنها فصِّلت لتناسب حاجات بيئته الاجتماعية الخاصة ، ومثل هذا القوانين المتصلة بالعلاقات الأسرية وبالزواج والميراث »[1]

(١) ونص كلامها باللغة الإنجليزية : [انظر الصفحة التالية] =

والـكاتبة لم تنس يهوديتها ، فهى تبدى الأسى والأسف وتتهم الرسول عليه السلام بالقسوة لأنه أبعد اليهود عن المدينة (انظر ص ٤٩) ، مع أنها اعترفت عند تحليلها « للصحيفة » وهى أول دستور أصدره النبي للمجتمع الإسلام فى المدينة بعـد هجرته إليها ـ أنها أول وأقدم وثيقة فى العالم تنص على الحرية الدينية ، فقد نصت الصحيفة على أن يترك لليهود الحرية فى أن يظلوا يهودا .

والحقيقة أن الرسول عليه السلام قد جامل اليهود مجاملة لم يجاملها لأية طائفة أخرى ، وأكرمهم غاية الإكرام ، واعترف بهم ـ فى الصحيفة ـ كعنصر ثالث إلى جانب المهاجرين والأنصار ، ونص فيها على حريتهم الدينية ، ولـكنهم قابلوا هذا كله بالجحود ونـكران الجميل والدسائس والمؤامرات يدبرونها ضد الرسول ، ثم انضموا أخيرا إلى الحلف الذى جمع أعداءه جميعا فى موقعة الخندق ، فالرسول إذن لم يكن قاسيا حين اضطر إلى إقصاء اليهود عن المدينة ، بل كان رحيما الرحمة كلها ، والرسول اضطر إلى اتخاذ هذا الإجراء اضطرارا لأنه كان فى سبيله لتكوين دولة جديدة ، والثورات والدول الجديدة ـ فى كل عصور التاريخ ـ لا يمكن أن تسمح ببقاء العناصر المناوئة الهدامة .

والمؤلفة ـ ويشاركها نفر من المستشرقين ـ تحاول فى أكثر من موضوع أن ترد الإسلام إلى أصول قديمة ، بعضها يهودى أو مسيحى ، وبعضها وثنى ، فهى على سبيل المثال ـ تقول فى ص ٤٩ وما يليها : إن الحج بصورته الإسلامية فيه كثير من

In spite of his genius, Muhammed was not a systematic law-giver, not even within the limited range of his original organization. The laws revealed in the koran are decisions (ad hoc) made to fit specifi cases. His social legislation is cut to the requirements of his own social invironment, for instance the regulations affecting family relations, marriage and inheritanee).

الشعائر التى كانت تتبع فى عهود الوثنية مثل الطواف وتقبيل الحجر الأسود ، وهذه محاولة ماكرة لأن أصحابها يريدون أن يثبتوا أن الإسلام لم يأت بجديد ، بل هو مجموعة من الأصول والقواعد والشعائر أخذت عن الأديان السابقة ، حتى الوثنية العربية القديمة التى قام الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها .

والمؤلفة تستعمل عند كلامها عن الإسلام بعض المصطلحات المتصلة بالدين المسيحى والنظام الكهنوتى ، فهى مثلا عند كلامها عن أثر الدين ورجال الدين فى الحركات السياسية خلال العصور حتى وقتنا الحالى تضرب أمثلة كثيرة ، ومنها أن شيوخ الأزهر فى القاهرة يهددون وينذرون بإصدار قرار الحرمان (excommuniction) ضد أىّ مسلم يعقد صلحا مع إسرائيل ، فهى تقول فى ص ٦٧ ـ ٦٨ :

(The Azhar Sheikhs in Cairo who threaten to excommunicate any muslim who would make peace with Israel ... etc).

ونظام الحرمان نظام كهنوتى عرفه باباوات وكرادلة روما فى العصور الوسطى ، ولم يكن يعرفه ولا يمكن أن يعرفه الإسلام ، وإذا كان لشيوخ الأزهر من رأى فى إسرائيل فهو أنها دولة مصطنعة معتدية دخيلة ، لا وجود لها من الناحية القانونية ، وكل من يتعامل مع هذه الدولة من المسلمين يعتبر خائناً لوطنه ولدينه .

وبعد ، فهذه مآخذ لا يرضى عنها القارئ المسلم لأنها تتصل بعقيدته وإيمانه ، والكتاب رغم هذا له قيمته ، فقد بذلت صاحبته جهداً كبيراً فى الدراسة والبحث وجمع المعلومات ، وحاولت حقيقة أن تتفهم أصول الدين الإسلامى والأسس التى قام عليها المجتمع الإسلامى خلال العصور ، ونجحت فى مواضع كثيرة فى تفهم وجهة نظر المسلمين ومشاكلهم ، وإذا كانت قد خانها التوفيق عند عرض بعض النقط التى أخذناها عليها فإنما فعلت ذلك مرغمة وتحت تأثير رواسب قوية استقرت فى نفسها ، وكانت أقوى من منهجها العلمى ومن رغبتها فى التزام الحيدة والعدالة عند إصدار

أحكامها . تلك الرواسب بعضها يرجع إلى الأثر القوى للديانة اليهودية التى وُلدت عليها المؤلفة وفى جوّها نشأت ، وبعضها يرجع إلى الأثر الأقوى للثقافة الغربيـــة التى تلقتها وللأساتذة الأوربيين الذين درست عليهم .

ونحن إذا كنا نحب ديننا ونعمل على دراسته وفهمه فإن من واجبنا أن نقرأ هذا الكتاب وأشباهه ، فإن فيه إلى جانب هذه المآخذ خيراً كثيراً ، ومن واجبنا أن نترجمه إلى اللغة العربية وأن نناقش ما يستحق المناقشة ونرد على ما يستحق الرد .

جمال الدين الشيال